تعليقات

٣ قصص في ضوء النقد

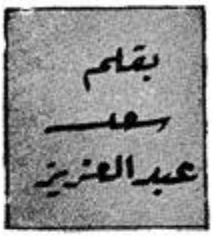

حقيقة لا يختلف فيها اثنان وهى أن الأدب ليس له من سبيل لرقيه وتجديده الا بأداة علمية تأخذ بتفسيره وتحليله وتقييمه وهذه الأداة هى التى نجدها ممثلة فى النقد الموضوعى ... وقد نجد بعض الأعمال الفنية لها من المقومات ما يجعلها تفرض نفسها على الناس جميعا متجاوزة فى ذلك كل القواعد وكل الأصول وقد يؤدى ذلك الى الاعتقاد بأن مهمة النقد هنا لا تعدو أن تكون مهمة ثانوية بمعنى أن النقد يسير دائما فى أعقاب العمل الفنى فكأن العلاقة بينهما علاقة تابع ومتبوع أو علاقة سيد ومسود لكن هذا يجانب الصواب فالحق أن لكل منهما وظيفة يؤديها فاذا كانت وظيفة العمل الفنى تتمثل فى تعميق نظرتنا الى الحياة عن طريق استبطان حقائقها وتكثيف هذه الحقائق أمام ادراكنا الوجدانى والعقلى فان هذا فى تقديرنا لا يمثل الا نصف الحقيقة .. أما النصف الآخر فهو يقف الى جانب النقد ذلك لأنه يقوم بعملية الكشف عن أسرار العمل الفنى وايضاح المغزى الذى يرمى اليه .. فكم من الأعمال الأدبية العظيمة ظلت مهملة فى طى النسيان الى أن جاءها النقاد فكشفوا عن قيمتها ولفتوا أنظار الناس جميعا اليها ... فاذا كانت مهمة الفنان تشكيل العناصر الفنية تشكيلا درامبا معماربا فان مهمة الناقد تنحصر فى تفكيك هذه العناصر وتسليط الضوء عليها لمعرفة سر مفزاها وبمعنى آخر يمكن القول بأن عمل الفنان انما هو التركيب وأن عمل الناقد انما هو التحليل وانه لكى ندرك الحقيقة فى تكاملها وفى جميع أبعادها لا غنى لنا عن هذين العملين فى مجال الفن .

ولعلنا نجد فى هذه المقدمة التى عرضناها التبرير الكافى للمهمة التى نقوم بها الآن وهى أن نتناول بعض القصص التى جاءت فى عدد مارس من مجلة القصة بالبحث والنقد والتقييم .

وأولى هذه القصص التى نعرض لها الآن هى قصة أهل زمان للكاتبة جاذبية صدقى وهى تحكى عن رجل قد أشرف على السبعين مسافر الى القاهرة بلا متاع سعيا وراء الرزق فقد ضاقت به بلدته فأراد أن يجرب حظه فى مكان آخر .. انه الآن لا يملك من حطام الدنيا شيئا فكل شىء استهلكه من أجل تربية أبنائه الذين لا يعيرون له اهتماما . وكان الزمن قد أعطاه درسا فى الحرص والبخل والأنانية فهو يشعر بالجوع ينهش أحشاءه فيشترى « سميدة » وقطعة جبن .. واشتم كلب أجرب رائحة الجبن فراح يستعطفه بنظراته ويهتز له عسى أن يلقى اليه بكسرة من (السميدة) لكنه كان يتلذذ من تعذيب الكلب وحرمانه من هذا الطعام وكأنه بهذا السلوك يثأر لنفسه .. وفى أثناء جلوسه فى المحطة استمع الى حكاية كان يرويها أحد الكهول الى زميله فأثارت فى نفسه شعور الارتياح ذلك لأنها تحكى عن النفوس الكبيرة وكيف أنها تغفر دائما وتمنح دائما .

ذلك هو مضمون القصة أما اذا نظرنا الى طريقة صياغتها فنجد أنها تتألف من عناصر ديناميكية

موحية تسعى الى التشكيل والبناء ... لكن هـــذا البناء يعتمد فى تكوينه على وحدات منفصلة بعيدة كل البعـد عن التفاصيل والاندماج فى وحـــدة كليـة متماسكة ... وهذه الوحدات نجدها ممثلة فى سلسلة الحكايات المتشعبة التى تطبع القصة بالتخلخل وعـدم الانسجام فى ايقاع واحد .. ولهذا فهى تسير فى خطوط متوازية وقد تتقارب هذه الخطوط فيما بينها وتلتقى فى المعنى الرئيسى للقصة لكنها مع ذلك لا تلتقى فى التشكيل التكنيكى للقصة . فقد رأينا الرجل يحكى حكايته ومن خلال حكايته نستمع الى حكاية أخرى تروى على لسان أحد الكهلين الذى راح يروى عن الحاج رفاعى والشيخ سويلم حتى اذا جاءت نهاية القصة خرجنا بالمعنى الأخلاقى المائل فى الأخذ بالعفو وايثار الخير للناس دائما .

ومن هنا يتضح لنـــا أن المعنى الرئيسى للقصة قد ساقته الينا الكاتبة فى صياغة مفككة مشتتة تعتمد على التفريعات والتفاصيل أكثر مما تعتمـــد على التركيز والاتجاه رأسا « الى اصابة الهدف وكان لهـــذا أثر بالغ فى تأثير الايقاع الدرامى للقصة فقد كان تأثيره خافتا فاترا متراخيا » .

ويمكن ايضاح القصة من الوجهة المنطقية على هـذا النحو :

(أ) رجل قد أشرف على السبعين يحكى عن نفسه .

(ب) الكهل الذى يروى على لسانه حكاية لزميله .

(جـ) الكلب الأجرب وهو يسعى مستعطفا بعض الطعام .

على ضوء ذلك يكون الحد الأوسط هنا هو الكهل الذى يقف بين بطل القصة من جهة وبين الكلب الأجرب من جهة أخرى .. وهو يعـد أيضـــا القوة المؤثرة التى تربط بين ثنائية الشعور وتناقضه عند البطل :

الشعور بالسخط الذى يؤدى الى عدم اعطاء الكلب الطعام من ناحية والشعور بالرضا الذى يكون من أثره القاء كل ما فى يد الرجل من طعام الى الكلب من ناحية أخرى .

ذلك هو التحليل المنطقى للقصة وهو الذى تمثل فيه الخيوط الرئيسية التى استطاعت الكاتبة أن تنسج منها نسيج القصة .. واذا كان هذا النسيج لا يخلو من بعض الثقوب فهذا لا يمنع من تقدير هـــذا العمل الأدبى فقـــد استطاعت الـكاتبة بما تتميز به من حاســـة فنية رائعـــة أن تستعين فى تعبيرها بالرمز حينـــا والصور الموحية حينا آخر مما جعلها فى منأى عن الأسلوب الخبرى التقريرى الذى لا يسوغه الذوق الفنى السليم .

أما قصة ليل وحنان للأستاذ سعد حامد فهى تصور حالة شخص قد فقد زوجته وهو يجلس الآن فى شقته وحيدا وقد ملأ الحزن جوانحه وهبت الذكريات فى وجهه فلم يستطع المقاومة فانطلق الى الطريق هائما على وجهه واستقل القطـــار الى القـاهرة وفى القطار يتعرف على سيدة من فتيات الليل تدعوه الى ضيافتها وقد استطاعت هذه السيدة أن تنتزع منه الاحترام وبعد قضاء بضعة أيام نجده ينطلق الى الطريق ويصـــادفه أحـــد الأصـــدقاء معزيا له فى زوجته ويتذكر أحزانه من جديد فلا يجد مناصا من الهجرة الى قريته ليقضى فيها بقية حياته ... الى هنا تنتهى القصة وهى بهذه النهاية ترمى الى المعنى الانسانى المائل فى أن على المرء أن يبحث له عن ملاذ يلوذ به فى حياته .. وقد استطاع الكاتب بحق أن يعطينا فيما يخص هـــذا المعنى ، شحنة انفعالية هائلة ... لكن الذى أريد أن أوضحه الآن انما هو الطريقة التى صاغ بها هـــذا المعنى .. كيف استطاع أن ينسج الخيوط حتى صارت نسيجا « وشكلا ؟ .. ما أحسب الا أن الأستاذ سعد حامد يمتلك أسلوبا أدبيا بليغا .. ما فى ذلك من شك .. لكن ينبغى أن نقف قليلا عند مفهوم كلمة بلاغة .. فعندى أن هذه الكلمة تختلف مقاييسها باختلاف نوعية الأشكال الأدبية .. فما يجوز فى هـــذا الشكل لا يجوز فى غيره .. فمثلا مقياس البلاغة فى النثر الانشائى يختلف تماما عن مقياس البلاغة فى التعبير الدرامى .. ذلك هو محور الخلاف بينى وبين كاتب هـــذه القصة .. فأنا هنا ألاحظ صياغة مرتبكة تخلو تماما من أى رابط يوحد بين أجزائها .. فهى تعتمد على جمل منمقة مرصوصة بغـــير نظام بحيث نجد كل جملة هنا مكتفية بذاتها مستقلة بمفردها

فهى لا تشارك فى التكوين الكلى للصياغة ودليل ذلك اننا يمكن ان نقتطع جزءا كبيرا من هـــذا السياق دون ان يختل المعنى ودون ان يؤثر ذلك فى النظام العام للقصة .. ذلك لأن القصة تسرد علينا بطريقة تقريرية خالية من اى ترابط سببى أو عضوى أو منطقى .. ويرجع سبب ذلك الى أن الكاتب اعتمد على الطريقة الانشائية الخطابية فى الكتابة أكثر من اعتماده على التعبير الحركى الذى يخلق من الجمل نسقا موصول الأجزاء .

فالجملة هنا تحمل طابع الشوق الذاتى للجملة التالية .. فهى بمثابة اللبنة التى تساعد فى ارتفاع البناء .. وحسبى أن أسوق بعض الفقرات من هذه القصة : ـ

تقول السيدة للرجل : « ... لـكن عليك أن تعيش حيـاتك وليست الحياة هى جنـة الفردوس التى وعد بها المتقون ولكن الانسان يستطيع أن يجعل من الجحيم فردوسـا » ويستطيع أيضا أن يجعل من الفردوس جحيما .. فى كل مكان نستطيع أن نجد السعادة .. فى الأكواخ والعشش يوجد أناس أكثر سعادة من بعض سكان الشقق الفاخرة والقصور الفخمة .. » .

ذلك كله يجوز أن يكون أدبا بليغـا فى مجال الوعظ والخطابة لـكنه لا يمكن أن يكون مستساغا فى أدب القصة .. ذلك الأدب الذى يستعين فى أسلوبه بالتلميح دون التصريح والايحاء بالصورة والرمز دون لمس واقع الحيـــاة لمسا مباشرا ... لكن الكاتب بالرغم من ذلك استطاع أن يسوق الينا بعض الجزئيات المثيرة .. منها موقف الرجل وهو يدور فى شـــقته بحثا عن زوجته فيتطلع الى ثيابها المعلقة على الشماعة ويشم رائحـــة عطرها ويهتف باسمها فى صوت خافت .. ومنها وصف الطرقات المتألقة بالضوء .. وأخيرا لا يسعنى الا أن أقدر موهبة الكاتب فى هـــذا الصدد .

والقصة الثالثة التى انتقيتها قصة بعنوان صغيرة وهى لفتاة تلتقط نفايات السجائر وتبذل جهدها فى أن تملأ الكوز الذى تجمع داخله هـــذه النفايات .. فهذا شرط عودتها الى بيت ابيها ذلك الرجل الشرس الذى يعاملها بكل فظاظة .

وأهم ما المسه فى هـذا الكاتب انما هو دقة احساســـه وقدرته على التقاط الجزئيات الموحية من مجرى الحياة الواقعية لكى يخلق منها نسقا أدبيا متكاملا .. فهو يستطيع أن يلتقف من الحياة صورة معينة وأن يستبطن هـــذه الصورة مستوحيا منها كل ما يشع من المعانى والاحاسيس وكل ما يفيـــد فى تعبيره الفنى .. فهذه الفتاة تقف متربصـة مرتقبة مصير السيجارة التى فى يد عمار افندى وبينما هى تقف مشدودة مترصـدة لعقب السيجارة يدخل فى الموقف منبه جديد .. انه صراخ مدحت ذلك الطفل الذى لسعت السيجارة أنامله فى غفلة من والده .. فتحول انتباهها فجأة الى وجهة أخرى .. لقـد نسيت كل شىء وهى الآن تتعاطف مع الطفل فقد حز فى نفسها أن تراه يبكى وتمنت لو تمسح دموعه المنهمرة وتمنت لو تمر بيـــدها فوق نعومة خـــده .. ستغسل يدها من رماد النفـايات قبل أن تفعل ذلك .. لـكنها حين رأت الكل يتبارى فى تهدئته النمعت الكآبة فى عينيها فقد راحت تقارن بين نفسها وبينه وراحت تتساءل : ـ

لمـــاذا ليس لها مثل حياته ؟ .. لمـــاذا تكون موضع اعراض الجميع ولماذا يكون هـــذا الطفل موضع حب الجميع ؟ .

على هـــذا النحو استطاع الأستاذ عبد العـال الحمامصى أن ينقل الفتاة فى خلال الموقف الواحد ثلاث نقلات شعورية .. فهى أولا تشعر بالتحفز وتعـــد نفسها للانقضاض على عقب السيجارة وهى ثانيا تتجه الى الطفل وتتعاطف معـــه وقد نسيت ما كانت تنتظره وهى ثالثـا يداخلها شعور الكآبة لانها لا تنعم بكل ما ينعم به هـــذا الطفل .

وعلى هذا لا تخرج قصة « صغيرة » عن كونها تصوير لموقف من جميع أبعاده .. والموقف هنا لا يضم اكثر من منبه واستجابة فكلما اختلف ايقاع المنبه استدعى هـــذا اختلاف فى ايقاع الاستجابة وهكذا تسير القصة فى اسلوب من التنويع والتلوين حتى النهاية . وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الأستاذ الحمامصى يحدثنا من خلال هـذا العمل الأدبى بلغة القصة الصحيحة .